Journal of Alasmarya University
Volume 13, June 2010

مجلة الجامعة الأسمرية
المجلد الثالث عشر، يونيو 2010

ملامح التمرد والغربة النفسية

في شعر عنترة بن شداد

د. محمد حسين ضو*

توطئة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الخلق أجمعين سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فتتكون القبيلة في المجتمع الجاهلي من ثلاث طبقات: طبقة الصرحاء، وهم أشراف القبيلة وسادتها، وطبقة الموالي، ويمثلون الطبقة المقربة من السادة، واللصيقة بهم، وهي التي تلي الأشراف في المرتبة ثم تأتي في الترتيب طبقة العبيد تلك الطبقة المغلوبة التي يجب أن تخدم السادة، وتقوم على مصالحها[1] هذا السائد في جميع قبائل العرب ماخلا قبيلة قريش التي تخالف هذا النظام الاجتماعي السائد فإنها تنقسم إلى أربع طبقات.

عنترة ضحية لتقاليد جاهلية ظالمة

يحدث أن يتزوج أحد السادة إحدى إمائه على الرغم من عدم تحقق مبدأ

* الجامعة الأسمرية.

1- لمزيد من التفصيل، ينظر جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، مكتبة النهضة بغداد 1978 ص 554 وما بعدها وإحسان سركيس، مدخل إلى الأدب الجاهلي، دار الطليعة بيروت 1979 ص 29، 181، 182 وكريم الوائلي، الشعر الجاهلي، قضاياه وظواهره الفنية، دار العالمية القاهرة د. ت ص 158 - 160.

التكافؤ بينهما، وتبلغ المأساة ذروتها إذا أنجبت الأمة من سيدها. ومما لا ريب فيه أن الولد عند العرب ينسب لوالده، ولا يمكن أن يقبل به إلا إذا كانت أمهُ من نسب كريم، وشرف ظاهر ومعروف، فالوالد هو أصل النسب الذي ينسب إليه المولود، أما الأم فمن جهتها تقود المولود إلى الخؤولة، التي كان لها عظيم الشأن عند العرب ...، وهو ما دفع الحجاج بن يوسف -بعد- إلى القول مفتخراً «لم تلدني أمة بيني وبين آدم ما خلا هاجر»(2).

وإذا كان أغلب السود، والعبيد قد رضوا بالحياة في كنف القبيلة، يحتملون صنوف العذاب، و الإهانة وسوء المكانة، على هامش القبيلة، فإن بعضهم أبى العيش في كنف هذه الحياة التافهة الذليلة، فخرج على قبيلته محطماً تلك القيود التي فرضت عليه، وفرَّ إلى الصحراء محققاً بعضاً من أمانيه وحريته التي يطمح إليها، وكيَّف حياته كيف شاء، آخذاً طريقه إلى الحياة العريضة فارضاً نفسه بضربة السيف، وطعنة الرمح(3).

نشأ عنترة في أواخر القرن السادس الميلادي «كما ينشأ أمثالُه من الهجناءَ طريداً بين الرعاة والعبيد، وأمه زبيبة كانت أمةً حبشية سباها أبوه، و استولدها إياه وكان لها ولد من غيره، وبقى عنترة حتى اشتدَّ و استوى وهو غير معترف به»(4) ولا يؤبه له وقد فرض نفسه بالقوة الجسمية، والفروسية الفذة، التي جعلت منه قائد حرب وبطلاً، ورجل ملمات، على الرغم من المعاناة التي قاساها قبل أن يصل إلى هذه المرتبة، فالعبودية كانت أهم دافع له في تمرده داخل القبيلة، وهي السبب الذي جعله يرفض ويهاجم في قوة وعنف وصلابة دون الشعور بالندم أو الذنب(5).

فهو لم يخرج عن إطار القبيلة، على الرغم من العذاب الذي لاقاه كما يلقاه أي عبد من عبيدها، وإنما استكان وفضّل أن يفرض وجوده بقوته وعنفوانه من خلال خدماته الإيجابية التي يسديها لقبيلته، ولا يستطيع أن يغير مما يرى شيئاً، وكان موقفه

2- الجاحظ، البيان والتبيين، دار المعارف القاهرة د. ت 71/2.

3- ينظر: يوسف خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، دار المعارف ط 4، 1966 ص 112-113.

4- محمد هاشم عطيه، الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي، ط مصطفى البابي الحلبي و أولاده ط 2، 1936 ص 391.

5- ينظر: عبد الكريم سَليمان سالم أبو خشان، تمرد بشار بن برد، رسالة ماجستير، مخطوط جامعة الإسكندرية 1977، ص 7.

رهن إشارة أيِّ سيد من سادات قومه، فهو يتمرد على الواقع المهين، والتمرد على الواقع يتضمن -أو يفترض- رفضه أولاً، ولكن التوافق عند مجرد الرفض -برغم ضرورة المتمرد- لا يمثل إلا الوجه السلبي للتمرد، والمتمرد الحقيقي هو من يعرف بديل ما يرفض، والواقع أن الإنسان لا يستطيع أن يرفض رفضاً حقيقياً إلا إذا كان يعرف بديلاً حقيقياً.

عنترة يلفت الأنظار إلى أن القيمة بالجوهر لا بالعرض ويصبر لذلك

إن رفض عنترة وتمرّده يرتكزان على أساس أنه لا تمايز بين الناس في الألوان في أصل الخلقة، إذ لا تتحدد قيمة الإنسان بلونه، لأن خصائص الإنسانية ليست محدودة بشكلية فارغة ولذلك قال:

وَلَيْسَ يَعِيبُ السَّيْفَ إِخْلاَقُ غِمْدِهِ إِذَا كَانَ فِي يَوْمِ الْوَغَى قَاطِعَ الْحَدِّ[6]

أراد الشاعر أن يكشف في هذا البيت عن العلاقة بين «الجوهر والعرض، أو الثابت والمتغير، إذ يمثل السيف الجوهر والثابت لا العرض المتغير، فلا قيمة للغمد و إن كان جديداً أو مزينا ومرصعاً أو كان بالياً، وإنما القيمة الحقيقية للسيف في حدته وقدرته على القطع في أثناء احتدام الخيل ونشوب المعارك ...، إن حديث عنترة هنا إنما هو مقابلة رمزية لقضية الخارج والداخل التي شغلته، أي حديث عن الغمد البالي أو الخارج المتمثل في اللون الأسود، هو أمر لا قيمة له، وإنما القيمة للداخل للسيف، أو الجوهر الذي يناظره ما انطوت عليه سريرة الإنسان فيتمثل في سلوكه و أفعاله... وفي هذا يتعرض عنترة إلى معضلة اللون الذي تقلقه وتؤرق عليه وجدانه»[7].

إن عنترة يحارب الأفكار التي يبثها هؤلاء السادة حينما يزعمون أنهم الأشراف، وأن غيرَهم من أبناء الإماء إن هم إلا عبيدٌ، هكذا خلقوا لخدمة السادة، ولرعي إبلهم وأغنامهم، والقيام على مصالحهم، فهم أقل من السادة رتبة وشرفاً، ولعل مقولة عنترة الشهيرة «العبد لا يحسن الكر، إلا الحلب والصرّ»[8]. كانت بمثابة صرخة يحاول التفريج بها عن كوامن ما يجيش في صدره، فكأنه أراد أن يذكِّر والده بما يشغل فكره،

6- عنترة بن شداد، ديوان عنترة، المطبعة التجارية، القاهرة، د. ت، ص 68

7- كريم الوائلي، الشعر الجاهلي وقضاياه وظواهره الفنية، ص 117.

8- عبد المجيد هندي، دراسات في الأدب الجاهلي وصدر الإسلام، د. ت، ص 94.

وفكر غيره من السادة الأشراف وأبنائهم، وما يكنونه في قلوبهم من حقد، تجاه من هم على شاكلة عنترة، في لونه، ومكانته، ونسبه المغموز بقلة شرفه، وهذا دليل على أن عنترة إنما يقوم بالمفاوضة مع والده. وبمعنى أوضح فكأنه أراد القول لوالده إني كما ترون وتعتقدون، عبد لا قيمة له، ولا مكانة له بينكم، والعبد لا يحسن فنون القتال ومقارعة الفرسان إنما يحسن رعي الماشية وحلبها وصرّها فكيف تطلبون منه الدفاع عن القبيلة وحمايتها، والثأر لها، فهو يأبى أن ينفذ أمر والده، لأنه يوجه كلامه له من مركز القوة، مركز المتمسك بزمام الأمر، لقد أخذ يمارس مع أبيه نوعاً من التمرد، ويمكن أن يسمى من خلال هذا الفهم تمرداً سلبياً، فهو –أي عنترة– فيما يبدو يعرف مدى إمكاناته الذاتية في مواجهة الواقع الذي تعيشه القبيلة. «فهو ابن سيدها، ولكن أمه حبشية وهذه هي نقطة الضعف التي كانت تؤرقه وتشقيه، ولكنه في نفس الوقت فارس القبيلة بلا منازع»[9]، فلقد أعلن العصيان الاجتماعي والنفسي، على واقع العبودية والذل الذي نشأ فيه، فتمرد عليه، وثار على أهله وجعل حياته سلسلة من مواجهة المخاطر، إلا أن موقفه السلبي ظل مسيطراً عليه طول حياته ولذلك فإن «الشاعر الذي يحس الألم فلا ينطق به، ويرى الميل فلا يقيمه، ولا يملك شجاعة الأنبياء، وجرأة المصلحين، وصولة الهادين، فلا بارك الله في قوله. وإنا لفي مندوحة عن أن نُعَنِّي أنفسنا بكلام لا صلة له بنفس صاحبه ... وأنت تعرف أن عنترة ذو أم حبشية، وأنه نشأ مستلحق لصلته بتلك الأم التي لا ذنب لها غير أن الله خلقها سوداء»[10] هذا الموقف السلبي الذي أُخذ على عنترة، قد أكده هو بقوله:

إِنِّي امْرُؤٌ مِنْ خَيْرِ عَبْسٍ مَنْصِباً شَطْرِي، وَأَحْمِي سَائِرِي بِالْمُنْصَلِ[11]

فهو يفتخر بشرف انتمائه إلى والده من بين رجال عبس، والشطر الآخر وهو نسبه من ناحية أمه، فإنه ينوب عنه ضرب السيف، فيأخذ عليه الأبياري اعترافه بتحقير أمه فيقول: «أما كان الأجدر به أن يرد على القوم تحقيرهم ويرفع من شأن أمه. وهي من البشر، ولا يدين بما يقول به القوم؟، وما كان أحوج القوم إلى لفتة على لسان شاعر

9– عبد القادر عبد الحميد زيدان، التمرد والغربة في الشعر الجاهلي، رسالة ماجستير، مخطوط، جامعة القاهرة، 1978، ص 82.

10– إبراهيم الأبياري، ديوان عنترة، مصطفى البابي الحلبي وأولاده، د. ت، التقديم: ص. ع.

11– عنترة بن شداد، ديوان عنترة بن شداد، ص 98.

تصرفهم عما هم فيه، ومن يحمل لواء المساواة بين الأجناس إن لم يحمله أمثال عنترة؟ »[12] ومن المسلَّم أن لدى عنترة « كل دوافع التمرد والخروج على القبيلة وتحديها. وكانت لديه أيضاً كل مقومات القدرة على إعلان هذا التمرد، من ناحية القدرة البدنية، والكفاءة القتالية والقوة النفسية، وكان في وسعه أن يقود حركة كبيرة بعد أن يجمع حوله أغربة المجتمع الجاهلي »[13].

لقد كانت الظروف مهيئة وسانحة لعنترة في أن يمتلك حريته أو يسعى لتحقيق ذاته، فالحرية في مثل حالته هي « تلك المقدرة التي يستطيع عن طريقها أن يحول إمكانية ذاتية -ليس لها من معنى إلا بالقياس إليه هو وحده- إلى وجود موضوعي فعال يحدد مصيره الشخصي »[14] وهي هدف عنترة العبسي على كل المستويات، حرية القول وحرية الرأي، وقد تصل هذه الحرية التي يقصدها عنترة إلى درجة أنه يستطيع رفض أي رأي أجمعت عليه قبيلته؛ لأنه يعتقد أن ما يراه هو الأصح، فهو يعبر عن ثورة حقيقية، ويسعى حثيثاً إلى تحقيق الحرية و العدالة، ومن دعواته المتصاعدة قوله:

حَكِّمْ سُيوفكَ فِي رِقَابِ العُذَّل وَإِذَا نَزَلتَ بِدَار ذُلٍّ فَارْحِلِ
وَإِذَا بُلِيتَ بِظَالِمٍ كُنْ ظالماً وَإِذَا لَقِيتَ ذَوي الجَهَالَةِ فَاجْهَلِ

ثم إنك تلاحظ بوضوح تلك الروح الكسيرة المنهزمة التي لم تستطع تغيير الواقع الذي تأنف التأقلم معه و الرضا به بأي حال من الأحوال حينما تراه يقول:

يَا نَازِلينَ عَلَى الحِمىَ وَدِيَارِه هَلاَّ رَأَيْتُمْ فِي الدِّيارِ تَقَلْقُلِي
قَدْ طَالَ عِزُّكم وَذُلِّي فِي الْهوَىَ وَمِنَ العَجَائِبِ عِزُّكُمْ وَتَذَلُّلِي

يلفت الشاعر نظر من حوله، ممن لا يأبهون بشجاعته وقوة جسده، ويؤكد طول هذا الضيم ويعجب من هذا الحال الذي جعل ممن هو في مثل عنترة يعيش ذليلاً مهاناً، بينما يحيا غيره في عزة ومنعة وسيادة.

12- إبراهيم الأبياري، ديوان عنترة، التقديم، ص. ع.

13- عبد القادر عبد الحميد زيدان، التمرد والغربة في الشعر الجاهلي، ص 82، وينظر أيضاً يوسف خليف الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ص 112.

14- زكريا إبراهيم، مشكلة الإنسان، مكتبة مصر، دار مصر للطباعة، القاهرة د. ت، ص 46.

لاَ تَسْـــقِنِي مَـــاءَ الْحَيَـــاةِ بِذِلَّـــةٍ بَـلْ فَاسْـقِنِي بِـالْعِزِّ كَـأْسَ الْحَنْظَـلِ
مَـــاءُ الْحَيَـــاةِ بِذِلَّـــةٍ كَجَهَـــنَّمٍ وَجَهَـنمٌ بِـالعِزِّ أَطْيَـبُ مَنْـزِلِ[15]

هكذا عاش عنترةُ مطالباً بالحرية، لأنه كان يعاني من الاحتقار والذل والمهانة، ولأنه كان ابن أمة و «كان العربي دائماً يحتقر أبناء الإماء»[16] لكن عنترة «لم يؤثر سيرة العبيد الخانعين كما أنه رفض الخروج عن الجماعة ليكون صعلوكاً، ولكنه آثر أن يستعيد حريته، وأن يسترد نسبه، وأن يبني أسرة كريمة، غير أنَّ عنترة ألفى نفسه أسير عائق، لم يكن له يد في صنعه، وقد تولدت من هذا العائق عوائق اجتماعية ونفسية كثيرة متعددة»[17].

إن عنترة لم يقف عاجزاً إزاء هذه العوائق الاجتماعية المختلفة، بخلاف الرأي الذي يرى «أنَّ عنترة لم يفعل أي شيء في مواجهة هذه العبودية التي فرضت عليه، والذي يتضح من شعره أنه قد استسلم لها تماماً»[18]، ومن شعره نستدل –هنا وفي مواطن لاحقة– أن عنترة عبَّر عن روح، تتجاوز الاستكانة، والخنوع، يقول:

الْعَبْـدُ عَبْـدكُمُ وَالْمَـالُ مَـا لُكُـمُ فَهَـلْ عَـذَابُكَ عَنِّـي الْيَـوْمَ مَصْـروفُ

أزعم أن في هذا البيت، وفي شطره الثاني بالذات ما ينبئ بتمرّد عنترة ضد والده، وضد مجتمعه، ولعلَّ عبارة «عنى اليوم مصروف» تحمل دلالة التمرد بكل معانيها كما أنها تحمل كل مشاعر الإحساس بالإهانة والظلم الذي تعاني منه نفس الشاعر، ولهذا فإن عنترة ترك في شعره مرارةً و ألماً، هما صورة لما في نفسه من ألم العبودية، والحب، ومرارة التعيير، وترك فيه أيضاً تلك الحماسة التي يتمثل بها كلما تحدث الإنسان عن آلامه و أحزانه.

ومن الجدير بالذكر أن صدر البيت يقرر حقيقة، تؤكد ملامح الفوراق الطبقية، وتكشف عن ملامح استعلاء السيد على العبد، ولذلك جاء الحديث عن العبودية والمال متوازناً في جملتين اسميتين: العبد عبدكم والمال مالكم، تراهما متوازنتان، نحواً وإيقاعاً،

15– عنترة بن شداد، ديوان عنترة، ص 110، 111.
16– ابن خلكان، وفيات الأعيان، المعارف، د. ت، 320/1.
17– كريم الوائلي، الشعر الجاهلي قضاياه وظواهره الفنية، ص 115.
18– عبد القادر عبد الحميد زيدان، التمرد والغربة في الشعر الجاهلي، ص 84.

فعلى مستوى التركيب النحوي يصل التماثل حداً كبيراً بين المبتدأ والخبر في الجملتين:

المبتدأ	العبد	المال
الخبر	عبدكم	مالكم

ومما يثير الانتباه، أَن الخبر تكرار للمبتدأ يفيد التوكيد، ولكنه مضاف إلى ضمير الجماعة «عبدكم، مالكم» فهذا يؤكد الملمح الاستعلائي والطبقي.

أما عجز البيت فهو تركيب ينتقل من الأداء الخبري إلى أداء إنشائي، ويؤدي الاستفهام الاستنكاري -هنا- دلالة الرفض، وكأن البيت الشعري فيه استسلام في أوله، ومحاولة للخروج وللرفض في آخره، كما أن التركيب يختلف، إذ ينتقل الخطاب من صيغة الجماعة إلى الإفراد، «فهل عذابك؟»، وينتقل فيه الخطاب أيضاً من إلغاء دور الشاعر الذي كان مجرد وصف بالانتساب إلى الآخر، «عبدكم، ومالكم» إلى التعبير عن الذات «عنّي»، وكأن الصدر يلغي تماماً وجود الشاعر ويحضر فيه الآخرون، وحين يرد الشاعر فإنه لا يعدو أن يكون مجرد شيء منكور «عبد، أو مال»، ولكن الصورة تختلف في العجز، إذ يصبح الحديث عن الإنسان، «فالعذاب، وعنى، ومصروف» كل ذلك يُنبئ عن وجودٍ إنساني، يرفض أو يتمرد، ويحاول الانتقال إلى التعبير عن ذاته.

بقى أمر مفاده أن الصدر يشتمل على قدر من التقطيع الصوتي ويرافقه تنغيم في جملتيه المتوازنتين توازناً يكاد أن يكون تاماً «العبد عبدكم والمال مالكم»، أما العجز فتكثر فيه حروف المد، (عذاب) و (عنى) و (مصروف)، فضلاً عن أن العجز ليس فيه تقطيع وتنغيم كما هو الحال في الصدر، وكأن هذا الاختلاف في التركيب الصوتي يسهم هو الآخر في الكشف عن دلالات الشطرين المختلفين.

إن عنترة بن شداد يعيش حياة العبودية، ويحاول التمرد عليها، قولاً مرةً، بقوله:

يُنَادُونَنِي فِي السِّلْمِ يَا ابْنَ زَبِيبَةٍ وَعِنْدَ صِدَامِ الْخَيْلِ يَا ابْنَ الأَطَايِبِ
وَلَوْلاَ الْهَوَى مَا ذَلَّ مِثْلِي لِمِثْلِهِمْ وَلاَ خَضَعَتْ أُسْدُ الْفَلاَ لِلثَّعَالِبِ[19]

إذ يعبّر في هذين البيتين عن بعض ما يلقاه من هوان، جراء نسبه الذي اكتسبه من والدته تلك التي ينسب إليها في حالة السلم تعييراً له وانقاصاً من شأنه، وكذلك عندما

19- عنترة بن شداد، ديوان عنترة، ص 22.

يكون قومُه في غنىً عن بطولاته وشجاعته في غير مقارعة المغيرين؛ وهي دعوة كما يعبر عنها: فيها من الذلة والهوان الكثير، بدليل إنهاء البيت بقوله «يا ابن الأطايب»، والأطايب جمع طيِّب[20] والطيب من له العزة والمنعة والعيش الكريم بين قومه، ولقد استخدم عنترة جمع القلة لهذه الكلمة «الأطايب» بوصفه أحد ألوان المبالغة في القيمة، حيث إنه يقصد المبالغة في الرفع من شأنه وقيمته وهو ابن الأطايب القلائل، وأراد من ذلك إبراز توددهم ومحبتهم له في اللحظات الحرجة جداً والتي يلجأ فيها الناس إليه؛ ليذود عنهم الشر، ويهرعون إليه لإنقاذهم مما هم فيه من ضيق وحرج، وحزن كما هو في العبارة التي استعملها قبل هذه «عند صدام الخيل» والصدام يعني التلاحم مع العدو، والتلاحم يعني كثرة القتل، حيث تتعالى صيحات الرجال «يا ابن الأطايب» أسرع لنجدتنا مما نحن فيه.

ويقرر عنترة ما يدور على ألسنة السادة من أبناء قومه من حيث نداؤهم له بأمه، تهجيناً له وتعييراً بها، إذ يعتبرونها من الإماء، والتقليل من شأن الأم تقليل من شأن الابن أيضاً، فهو يبرز ذلك التناقض بين الخبيث والطيب الطاهر النسب الشريف الأصيل، ويستعين الشاعر في إبراز صورة ذلك بما أتيح له من وسائل و أدوات من البيئة المحيطة به، بأن جعل الإهانة تبلغ ذروتها، والمستحيل معها خضوع ملوك الغابة للثعالب «ولا خضعت أسد الفلا للثعالب» وهذا تعبير عن نفسية عنترة الكسيرة التي «كانت تتألم أشد الألم لما تلقى من الاحتقار والازدراء، فتحاول (النفس) جهدها أن تخرج من طبقة الرعيان في إظهار شجاعتها، ولديها سلاحان ماضيان: الشجاعة والشعر، وكلاهما كفيل بأن يجعل لصاحبه مكانة عالية في القبيلة»[21].

إن عنترة بن شداد يعبر عن حالتين متعارضتين في قومه «حالة السلم التي لا يعدو أن يكون فيه سوى عبد، يحط قومه من شأنه، وينادونه باسم أمه زبيبة، تحقيراً، وتقليلاً من أهميته، أما في حالة الحرب فإنه تعلو قيمته وأهميته»[22]، وهذا يدلنا على أن عنترة يشعر بذاته أقصى غايات الشعور، سواء أكان ذلك على مستوى التحقير أو الافتخار.

ولعل ملامح الإحساس بالتفاوت بين حالتيه المتعارضتين وموقفه الذي يجنح فيه

20- الطيب خلاف الخبيث، ابن منظور، لسان العرب، مادة: طيب 563/1.

21- بطرس البستاني، أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، دار صادر، ط 2، بيروت 1962 ص: 169.

22- كريم الوائلي، الشعر الجاهلي قضاياه وظواهره الفنية، ص: 120.

نحو الرفض يتراءى لك من خلال قرائتك قوله:

إِنِّـي امْـرُؤٌ مِـنْ خَيْـرِ عَـبْسٍ مَنْصِـباً شَطْرِي، وَأَحْمِي سَائِرِي بِالْمُنْصـلِ[23]

وإذا كان في عنترة بن شداد شطران، شطر وضيع يعود إلى أمه ولونه، وشطر عال في نسب عربي ينتمي إلى قبيلة عبس، فهو دائم المحاولة لتعويض شطره الوضيع -الذي ليس له إمكان في تغييره- بالقوة أي السيف. وكأن هذا البيت الشعري يمثل وجهاً آخر غير الوجه الذي رأيناه من خلال البيتين السالفين، ولكنه -هنا- يتجاوز ذلك إلى التعبير عن استخدام القوة، في العلو بشأنه وقيمته. وبهذا « يتحول السيف إلى نسبٍ يغطي نقص شطره الآخر »[24].

لم يخرج عنترة عن إطار قبيلته بقدر ما ناضل من أجل تحقيق حلمه سلمياً، وحرصه على تأكيد ذاته، وانتسابه إلى شداد سيد القبيلة، وأحد أشرافها؛ ليصبح هو بدوره أحد السادة، الذين لهم الصيت والمنعة والرفعة، وكانوا أصحاب الشأن والكلمة داخل القبيلة، فهو يريد أن يحقق أمله المنشود الذي يصبو إليه، ويناضل من أجله، على الرغم مما يلقاه من صنوف العذاب، جراء عدم اعتراف شداد به، وما تفرضه القيود والتقاليد البدوية عليه، تلك التي تفرض على الآباء عدم الاعتراف بأبناء الإماء، وعدم استلحاق نسبهم بهم، و شداد كان أحد أفراد المجتمع البدوي القبلي، الذي يفرض هذه القيود « وكان حريصاً على التقاليد البدوية فأبى استلحاقه وتحريره، ولم يكن يحجم عن ضربه مع ما رأى من فصاحته وإقدامه »[25].

ولم تكن تلك المواقف إلا استجابة للتقاليد والأعراف والقيم الاجتماعية، التي جعلت عنترة يرزح تحت نير العبودية والذل والمهانة السنين الطوال، على الرغم من أنه كان باستطاعته « أن ينضم إلى مملكة من هذه الممالك التي كانت تحيط بالجزيرة العربية فيجد له هناك مكانة الصدارة، لما يمثله لديها من ورقة رابحة في كل ميدان من ميادين القتال.

لقد كانت الظروف -فيما نعتقد- مهيأة له لو فكر في أن يتوجه إلى أي وجهة

23- عنترة بن شداد، ديوان عنترة، ص: 98.

24- كريم الوائلي، الشعر الجاهلي قضاياه وظواهره الفنية، ص: 126.

25- بطرس البستاني، أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، ص: 169. وينظر، فتحي سعيد، الشعراء الفرسان، الدار القومية للطباعة والنشر، د. ت، ص: 162.

من هذه الوجهات التي ذكرنا، أو يسلك غيرها، بدلاً من حياة الذلة التي رضي بها قبل أن يعترف به من قبل أبيه، مع أن التجريح لم ينته بعد اعتراف أبيه به، فقد ظل على حاله وإن تكتمته النفس »[26].

ومن الجدير بالذكر أن شعر عنترة لا يخلو من تلك الومضات المعبّرة عن الروح الأبية التي كان يتميز بها عنترة عن غيره حيث يقول:

لاَ يَحْمِلُ الْحِقْدَ مَنْ تَعْلُو بِه الرُّتَبُ ولا ينالُ الْعُلاَ مَنْ طَبْعُهُ الغَضَبُ[27]

يلفت النظر إلى مكرمة عظيمة يجب أن يتحلى بها السادة الذين علت مراتبهم، وأن ينأى أمثالهم عن شيمة الغضب والحقد، وفيه إشارة إلى أن الشاعر يدعو السادة إلى الفضيلة والخلق النبيل، كاعتبار الناس في مستوى واحد دون فوارق.

وَمَنْ يَكُنْ عَبْدَ قَوْمٍ لاَ يُخَالِفُهُمْ إذا جَفَوْهُ وَيَسْتَرْضِي إِذَا عَتَبُوا

ينتشي الشاعر في هذا البيت بالحرية، وتغمره السعادة بالسيادة، فيرى من نفسه مرشداً ومصلحاً، لما يراه من سلوك حسن بين السادة والعبيد، بعد أن رأى نفسه متحرراً، وأصبح سيداً.

قَدْ كُنْتُ فِيمَا مَضَى أَرْعَى جِمَالَهُمُ وَالْيَوْمَ أَحْمِي حِمَاهُمْ كُلَّمَا نُكِبُوا

« ولئن استسلم الإنسان حيناً، وغُلِبَ على أمره واندحر شعوره بالتفوق والقدرة على إبداع الأشياء، وخلقها من جديد، فإنه لا يعدم أن يشرئب ويعصي، ناكراً عبوديته، شاعراً بانفعاله، ويقينه النفسي أنه حر حريّة تامة، تلك حرية الشعور والرؤية التي تطلقه من عبودية العقل والمعرفة، ويتيقن أنه قادر قدرة تامة، تلك قدرة الروح التي تفكّه من عقال المادة والحس اللذين يتصلان بها ويعبران عنها »[28].

الغربة النفسية وعلاقتها بالتمرد عند عنترة

لا ريب أن ما سبق يعبر عن حالة من الاغتراب، والبعد الاجتماعي، يعيشها

26- عبد القادر عبد الحميد زيدان، التمرد والغربة في الشعر الجاهلي، ص: 83 وما بعدها بتصرف.
27- عنترة بن شداد، ديوان عنترة بن شداد، ص 10، 11.
28- إيليا حاوي، في النقد والأدب، دار الكتاب اللبناني، بيروت ط الرابعة، 1979، 34/1.

عنترة بن شداد، ولم يكن متسقاً مع مجتمعه، ومتآلفاً معه، بل كان يعاني شقوة الحياة جراء تلك المعاملة المهينة السيئة التي كان يعامل بها، ونذكر على سبيل المثال شواهد من شعره تؤكد ذلك:

فَلأُغْضَبنَّ عَوَاذِلِي وَحَوَاسِدِي وَلأَصْبِرَنَّ على قِلّىً وجَوَاءِ
وَلأَجْهَدَنَّ عَلَى اللِّقَاءِ لِكَي أَرَى مَا أَرتَجيهِ أَوْ يَحينَ قَضَائِي[29]

ففي هذين البيتين يوضح عنترة مقدار صبره على الضيم، وعلى تلك المعاملة السيئة التي كان يعاني منها، ويبين أنه لجأ إلى الاستكانة والصبر على ما يكنّه في صدره حتى يتمكّن من الحصول على ما يريد، أو يموت فينتهي أمره، إذن فهو يسعى إلى التخلص مما هو فيه بأي شكل من الأشكال، وإن كان بالموت والانتهاء.

ويقول:

فَاغتَالَنِي سَقَمِي الَّذِي فِي بَاطِنِي أَخْفَيْتُهُ فأذَاعَهُ الإِخْفَاءُ[30]

في هذا البيت يصور عنترة ما يعانيه، بالمرض الذي ظل ملازماً له، ولم يظهره حتى تعاظم (وطفح الكيل) فصوره بمثابة الغول الذي هجم عليه ليغتاله ويقضي عليه.

ويقول أيضاً:

مَنْ كَانَ يَجْحَدنِي فَقَدْ بَرِحَ الْخَفَا كُنْتُ أَكْتُمَهُ عِنِ الرُّقَبَاءِ[31]

يعبر عنترة هنا عن وحدته وانفراده، ولا أشدَّ على الإنسان وحشة من تلك اللحظات التي يقاسيها منفرداً في صحراء مترامية الأطراف، مهما أوتي من قوة وشدة وصلابة.

وفي تقديري أن عنترة لم يقصد -في البيت التالي- تلك الصحراء الحقيقية ذات الرمال والوحوش، والطبيعة القاسية، إنما كان يقصد بها وحشته وسط ذلك الخضم من حوله، ومن أبناء مجتمعه الذين كانوا يحكمون عليه وحدته بسبب لونه، فهو منفرد يشعر

29- عنترة بن شداد، ديوان عنترة بن شداد، ص: 8.
30- نفسه، ص: 7.
31- نفسه، ص: 8.

بالغربة والوحشة، فلا أنيس ولا قريب يؤنس وحشته، وهذا يعني أن غربة عنترة وانفراده إنما هما غربة داخلية، يعبر فيها عن الأنا، لأن الغربة تجربة ذاتية فردية، يقول:

كَمْ لَيْلَةٍ سِرْتُ فِي الْبَيْدَاءِ مُنْفَرِداً وَاللَّيْلُ لِلغَرْبِ قَدْ مَالَتْ نَوائِبُهُ[32]

فالشاعر يعبر بلفظ (كم) الخبرية للدلالة على الكثرة ويؤكد الوحشة والغربة بقوله (منفرداً) ولكي يزيد المعنى وضوحاً، وتأكيداً لغربته ووحشته، ويقول «الليل للغرب قد مالت نوائبه» وأشد الظلمة وأحلكها عندما تنحدر الكواكب والنجوم إلى ناحية الغرب، ثم يقول:

يَرَوْنَ اْحِتمَالِي عِفَّةً فَيُرِيبَهُمْ تَوَفُّرُ حِلْمِى أَنَّنِي لَسْتُ أَغْضَبُ[33]

ويمكننا الإشارة هنا إلى أن عنترة في كثير من قصائده يريد أن يؤكد أن الشرف والمكانة الرفيعة لا يكونان بالنَّسب الشريف وإنما يبنيهما صاحبها بالسيف والقوة الشخصية، ولا تكتسب عن طريق مجد الآباء وشرف النسب، وفي هذا المعنى ورد له الكثير من الشواهد الشعرية، وسأكتفي بعرض أكثرها عمقاً بحسب ما أرى في دلالته على المعنى تلاحظ ذلك في قوله:

وَقَدْ طَلَبْتُ مِنَ الْعَلْيَاءِ مَنْزِلَةً بِصَارِمى لاَ بِأُمِّى لاَ وَلاَ بِأَبِي
فَمَنْ أَجَابَ نَجَا مِمَّا يُحَاذِرُهُ وَمَنْ أَبَى ذَاقَ طَعْمَ الْحَرْبِ والحَرَبِ[34]

في شعر عنترة الكثيرُ من تلك الشواهد التي تدل على أن الإنسان اجتماعي، لا يستطيع البعد عن الجماعة، و لا بد له من التقارب، والتجاور، والحب، وهذا لا يمنعه من الحصول على حريته فينبغي أن يكون حراً طليقاً سيداً، له نصيب في الرأي والمشورة «وكان من مظاهر ذلك النظام الاجتماعي أنه أصبح من العسير على الفرد أن يعيش بنفسه، فالإنسان الذي يعيش منفرداً في مثل هذه البيئة مصيره إلى زوال عاجل، ولا يزال ضعفه هذا إلا إذا انضم إلى غيره ليكونوا جماعة هدفها الأول هو العمل على حفظ الحياة لأعضائها، وبقدر ما يكون من تضامن بين أفراد هذه الجماعة تكون

32- عنترة بن شداد، ديوان عنترة بن شداد، ص 10.
33- نفسه، ص: 13.
34- نفسه، ص: 21.

عداوتها وتربصها بغيرها من الجماعات »[35] ويؤكد ذلك بقوله:

سَأَصْبِرُ حَتَّى تَطّرِحْني عَوَاذِلِي وَحَتَّى يَضّجَ الصَّبْرُ بَيْنَ جَوانِبِي
مَقَامُكَ فِي جَوِّ السَّماءِ مَكَانُهُ وَبَاعِي قَصِيرٌ عَنْ نَوَالِ الْكَواكِبِ[36]

وفي ضوء هذا يبدو عنترة بن شداد مصمماً على البقاء في القبيلة، وأن يكون تمرده خاصاً داخلها، بمعنى أنه « يمارس حركته المنتفضة الدافقة بالبطولة دون أن يرفض القبيلة، بل ضمن إطار القيم التي تؤسسها، والعلاقات الاجتماعية التي تنظمها: الزواج، الأبوة، السيادة ... إلخ. ولذلك فإن فعل البطولة لديه ذو اتجاه خارجي، وقائم في إطار القبيلة، أما امرؤ القيس فقد كان على نقيض ذلك: فبطولته بطولة اختراق لدائرة القبيلة والقيم التي تؤسسها، وانتهاك من أجل الوصول إلى المرأة المحضة، وتأكيد لكون العلاقة الجنسية و الشبقية عادة أعظم أهمية في سياق الصراع الأساسي بين الإنسان والزمن، والإنسان والعالم، من نظام القبيلة »[37].

فلعلك تلاحظ الفرق بين امرئ القيس في شبقه الزائد، ودعوته إلى تحقيق الغرض الجنسي، بأي شكل من الأشكال، وعنترة الذي يريد أن يؤكد فضيلة، و أن يحقق رغبته الجامحة في تأكيد ذاته، وإرساء دعائم حريته.

إن أغلب الذين تمردوا على قبائلهم، ولم يرضوا بالوضع السائد فيها، انطلقوا إلى الصحراء الواسعة المترامية الأطراف الخالية من الأنيس إلا من الوحوش والغربة، وقسوة الطبيعة، ومشقة الحياة وعسر المعيشة، وخلوها من الإنسان، ورغبوا في الانفراد عن الجماعة، ولكن لماذا فضَّل هؤلاء الغربة، واللجوء إلى الصحراء، على التوافق مع مجتمعهم، والعيش في كنف قبائلهم؟ يبدو أنَّ انطلاق هؤلاء إلى عرض الصحراء « يمثل رفضاً للحياة التي تشملها الفوضى وتفتقر إلى النظام، الخالية من الوضوح، والبراءة،

35- محمود ذهني، سيرة عنترة، دار المعارف، القاهرة مصر، 1977 ص: 32.

36- عنترة بن شداد، ديوان عنترة بن شداد، ص 27، ولمزيد من التفصيل ينظر ص: 9، 10، 15، 16 من الديوان إلخ.

37- كمال أبو ديب، الرؤى المقنعة، نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة 1986، ص 290.

والنقاء، المليئة بالتشرد والضياع »[38].

فالاغتراب حالة عاشها هؤلاء الذين انطلقوا إلى الصحراء هرباً من ضيم السادة وبحثاً عن الحرية، كما عاشها أيضاً أولئك الذين آثروا البقاء في المجتمع، تحت نير السادة وقسوة المعاملة والإهانة، أي أنهم قاسوا حالة من الضياع النفسي الذي فرض عليهم، لعدم التوافق مع فئات المجتمع. إذن فإن الاغتراب يعني « الضياع الذي يستشعره الإنسان عندما يفقد ذاته »[39].

ومما لا شك فيه أن المجتمع القبلي وإن كان أفراده وفئاته يشكلون وحدة شاملة لجميع قطاعاته، فإن هذا لا يعني أن الإحساس بالغربة فيه معدوم، فالاغتراب بهذا المعنى « يعكس لنا حقيقة العلاقة الجدلية بين الشاعر ومجتمعه، كما يتوقف عند عمق الصورة المحورية التي تشد الفرد إلى الجماعة، سواء: أبدأ منجذباً مُتسعاً معها، أم تحول موقفه إلى ضرب من النفور منها، أو التمرد على قيمها، أو حتى الرفض لأنظمتها »[40].

أما عنترة فلقد عاش الغربة في مجتمعه، ولم يخرج من المجتمع، بل ظل صامداً في مواجهة الواقع المرير، الذي يعانيه ويقاسي صنوف عذابه، ولم يكن ذلك استسلاما منه، وإنما هو يتحين فرصة تلوح له للخلاص من هذا الظلم والطغيان، ولم يبح لنفسه الخروج على القبيلة بطريقة سافرة، ففضل البقاء داخل القبيلة، والعيش مع والدته وإخوته، مستمتعاً بتلك النظرات الخاطفة التي تقع منه على معشوقته عبلة و « ربما كانت هذه العاطفة المشبوبة، بمثابة الواحة لهذا المقاتل الجسور وسط لهيب العبودية والنبذ »[41].

وقد عبر عنترة بن شداد عن حالة الغربة هذه، وهو يوجه لومه إلى الدهر مرة، وإلى قومه مرة أخرى، يقول[42]:

أُعَاتِبُ دَهْراً لاَ يَلِينُ لِنَاصِحٍ وَأُخْفِي الجَوَى فِي الْقَلْبِ وَالدَّمْعُ فَاضِحِي

38- عبد القادر عبد الحميد زيدان، التمرد والغربة في الشعر الجاهلي، ص: 111.

39- نفسه، ص؛ ج من المقدمة.

40- مي يوسف خليف، ظاهرة الاغتراب عند شعراء المعلقات، دار نهضة مصر، 1987، ص: 14 و 15.

41- عبد القادر عبد الحميد زيدان، التمرد والغربة في الشعر الجاهلي، ص: 84.

42- عنترة بن شداد، شرح ديوان عنترة، ص: 33.

وَقَـوْمِي مَـعَ الأَيَّـامِ عَـوْنٌ عَلَـى دَمِـي وَقَـدْ طَلَبُـونِي بِالْقَنَـا وَالصَّـفَائحِ
وَقَـدْ أَبْعَـدُونِي عَـنْ حَبِيـبٍ أُحِبُّـهُ فَاصْبَحتُ فِـي قَفْـرٍ عَـنِ الأُنْـسِ نـازِحِ
وَأَيْسَـر مِـن كَفِّـى إذا مـا مَـدَدتُّها لِنَيـل عَطَـاءٍ مَـدَّ عُنْقِـي لِـذَابِحِ

عاش عنترة التمرد ومارسه، ولكن ممارسته للتمرد كانت بطريقته الخاصة، وهذه الطريقة أملتها عليه حكمته وعقلانيته، ولكنها في النهاية أدت به إلى مايَوَدُّه بطبيعة الحال، وهو إثبات ذاته داخل القبيلة وممارسته لأفعال السادة فيها، لا فعل العبيد، و« كان النظام الاجتماعي الذي ساد في المجتمع الجاهلي وليد النظام الاقتصادي، بكل ما فيه من خلل وتباين، ولقد سبقت الإشارة إلى طبقات هذا المجتمع، وبخاصة طبقة السادة وطبقة العبيد، فلم تكن الطبقة الأخيرة تملك شيئاً حتى نفسها وحريتها. وأمام هذا الفارق الحاد بين الطبقتين في الثروة والمكانة الاجتماعية، كان لا بد من أن يحدث الشقاق الذي يدفع بالإنسان المعدوم إلى التمرد»[43] يقول عنترة في ذلك:

وَلاَ عَيْـبٌ عَلَـيَّ ولا مَـلاَمٌ إِذَا أَصْـلحْتُ حَـالِيَ بِالْفَسَـادِ
فَـإِنَّ النَّـارَ تُضْـرَمُ فِـي جَمَـادٍ إِذَا مَـا الصَّـخْرُ كـرَّ عَلَـى الزِّنَـادِ
وَيُرْجَـى الْوَصْـلُ بَعْـدَ الهَجْـرِ حِينـاً كَمَـا يُرْجَـى الـدّنوُّ مِـنَ البِعَـادِ
حَلُمْـتُ فَمَـا عَـرَفْتُم حَـقَّ حِلْمِـي ولا ذَكَـرَتْ عَشِـيرَتُكُم وِدَادِي
سَـأَجْهَلُ بَعْـدَ هَـذَا الْحِلْـمِ حَتَّـى أُرِيـقَ دَمَ الْحَواضِـرِ وَالْبَـوادِي

إلى أن قال:

أَقَمْـتُ الْحَـقَّ بِالْهِنْـدِيِّ رَغْمـاً وَأَظْهَـرْتُ الضَّـلاَلَ مِـنَ الرَّشَـادِ[44]

استهلَّ عنترة هذه الأبيات بنفي العيب والملامة فيما يَقوم به من أعمال ضد أولئك الذين يحتقرونه ويذلونه، ذلك أن المارد يخرج من قمقمه ويتمرد على هذه المذلة والمهانة والاحتقار، حيث إنه سينتصر لنفسه، وإن كان انتصاره يسبب فساداً وظلماً لقومه، ويبيِّن ذلك فيما أقامه من تعارض وثنائيات، فلقد أقام التعارض بين الإصلاح

43- عبد القادر عبد الحميد زيدان، التمرد والغربة في الشعر الجاهلي، ص: 91.
44- عنترة بن شداد، ديوان عنترة، ص: 42 و 43.

والفساد، فينصب من نفسه المصلح الذي يصلح ما يفسده الغير من أبناء قبيلته، ويقوّم ويصلح من حالته الراهنة، ثم يريك التعارض بين الوصل والهجر، والدنوّ والبعاد، والجهل والحلم، والحواضر والبوادي، والضلال والرشاد، ويدل هذا التعارض على التناقض بين الأسود والأبيض، والسيد والعبد. فهو يقيم حديثه على ذلك التناقض الصارخ في البناء الاجتماعي القبلي، الذي يحتقر العبيد، ويضطهدم، ويقلل من شأنهم، ويقابل ذلك بنفسه الكسيرة المحتقرة، التي تتطلع إلى التحرر وإظهار الحق وإنصاف نفسه، وقد دلَّلَ على ذلك بقوله «وأظهرت الضلال من الرشاد» وبيّن أن سبب ذلك حلمه المبالغ فيه، ووده الذي لم يعترف به أحد من قومه، و«لا نريد أن نعمم هنا نزعة التمرد لدى طبقة العبيد، وبتعبير آخر لم يحمل هؤلاء المحرومون لواء الرفض جميعاً، بل كان فيهم من رضي بحياته التافهة يمارسها ويعيشها في خدمة السادة، قانعاً بما يتبقى على موائدهم، من فتات يقيم له أود حياته دون رفض أو احتجاج، ولم يكن هذا الموقف منهم بالمحبوب أو المستحسن في نظر إخوانهم الثائرين، وقد أدى إلى أن يقف منهم زملاؤهم الذين أبوا هذه الحياة المهينة موقفاً كله لعنة وازدراء»[45].

وإذا كانت هناك أسباب عديدة أسهمت بشكل أو بآخر في جعل عنترة يستكين، لكل أنماط الإهانة الموجهة إليه، فإن افتتانه وحبه المبالغ فيه لعبلة دفعه إلى قدر من الاستكانة والخضوع، وقد عبّر عن ذلك بقوله:

إِذَا الرّيحُ هَبَّتْ من رُبَى العَلَمِ السّعْدي ... طَفَا بَرْدُهَا حَرَّ الصَّبَابَةِ والْوَجدِ
وَذَكّرَنِي قَوْمَاً حَفِظْتُ عهُودَهم ... فَمَا عَرَفُوا قَدْري وَلاَ حَفظوا عَهْدِي
ولَوْلاَ فَتَاةٌ فِي الْخِيَامِ مُقِيمَةٌ ... لَمَا اخْتَرْتُ قُرْبَ الدَّار يَوْماً عَلَى الْبُعْدِ
مُهَفْهِفَةٌ والسِّحْر من لَحَظَاتِهَا ... إِذَا كلّمَتْ مَيتاً يَقُومُ مِنَ اللَّحدِ[46]

يبدو جلياً ما يعانيه عنترة من ضيم وقهر وعبودية جراء حبه لعبلة، على الرغم من أن عنترة ذلك الفارس يمكنه الخروج على القبيلة، وأن يشكل جيشاً تحت قيادته، يستطيع من خلاله أن يسيطر على طرق الصحراء ومنافذها، وأن يمنع ويحرم، ويعطي من أراد، ويستطيع أن يفرض قوته، ويبسطها على قبائل أخرى كانت تقطن الصحارى،

45- عبد القادر عبد الحميد زيدان، التمرد والغربة في الشعر الجاهلي، ص: 91.
46- عنترة بن شداد، ديوان عنترة بن شداد، ص: 58.

وكان باستطاعته أيضاً أن يخرج إلى إحدى القبائل التي تتمنى أن يكون من أفرادها، فهو الذي يتميز بالقوة، لكي تحمي نفسها من الغارات، بل وتستطيع أيضاً -بعد حلفها معه- أن تغير وتسلب وتنهب، وتكون له بين أفرادها اليد الطولى، والكلمة العليا، والمكانة الرفيعة، لكنَّه آثر البقاء، استجابة لعاطفته القوية الناجمة من حبه لعبلة، ذلك الحب القوي الذي جعله يرضى لنفسه المهانة والمذلة في سبيل أن يبقى قريباً من حبيبته، ومما أسهم في تعميق ذلك، أمران، أولهما يتصل بطبعه البدوي فهو «مبالغ في حبه، ومبالغ في قسوته وكرهه»[47]. وثانيهما، عذرية الشاعر في حبه، فهي تمثل «مشكلةَ فئةٍ من الناس، في ظل الحياة القبلية، فعنترة أسود، وابن أمة ... وهذه العذرية، تمثل الأزمة، التي كانت تعتلج في نفس عنترة بين البقاء على حبه للقبيلة، أو الثورة والخروج عليها، وبذلك تصبح صورة حبه العذري صورة هذه الثنائية المتنافية التي تنتهي إلى العجز عن إيجاد الحل»[48] سيما وأنه القائل مجسداً قيمة أخلاقية ثابتة:

وأغض طرفي ما بدت لي جارتي حتى يواري جارتي مأواها

وكان عنترة يعي تماماً حاجة قومه إليه، في غاراتهم وثاراتهم، وما كان ليجهل «قدر نفسه فينام على الضيم والخمول، راضياً بالذلّ والعبودية، فقد كان يعلم حق العلم أن قومه سيحتاجون إليه إذا أغاروا أو أغير عليهم، فأخذ يلح على أبيه طالباً إليه أن يعترف به، وأبوه يُعرض عنه مخافة التعيير، وهو صابر ينتظر يوماً عصيباً تنكب فيه بنو عبس، فيلتجئون إليه فيغتنم الفرصة لتحقيق أمانيه، وليس هذا اليوم بعيد الوقوع»[49] وَظل يطالب به، ويسعى لتحقيق هدفه المنشود، فيبرز قيمة معنوية يركن فيها إلى الله عز وجل، وهو دليل من أقوى الأدلة التي تثبت معرفة الجاهليين لله تعالى وقدرته القوية التي يستند ويلجأ إليها كل من يشعر بضعف أو ظلم، ترى ذلك بوضوح في قوله:

إِلَى اللَّهِ أَشْكُو جَوْرَ قَوْمِي وَظُلْمَهم إِذَا لَمْ أَجِدْ خِلاًّ عَلَى البُعْدِ يَعْضُدُ
خَلِيلَيَّ أَمْسَى حبُّ عَبْلَةَ قَاتِلِي وَبَأْسِي شَدِيدٌ وَالْحُسَامُ مُهَنَّد

47- إحسان سركيس، مدخل إلى الأدب الجاهلي، ص: 237.

48- نفسه، ص: 237.

49- بطرس البستاني، الشعراء الفرسان، ص: 176 و 177 وينظر أيضاً بطرس البستاني، أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، ص: 169.

حَــرَامٌ عَلَــيَّ النَّــوْمَ يَابْنَــةَ مَالِــكٍ وَمَنْ فَرْشُهُ جَمْرُ الْغضَا كَيْفَ يَرْقُدُ
سَــأَنْدُبُ حَتَّــى يَعْلَــمَ الطَّيْــرُ أَنَّنِــي حَزِينٌ وَيَرْثِي لِي الْحَمَامُ الْمُغَــرِّدُ(50)

ففي هذه الأبيات يشكو عنترة وبمرارة جور قومه وبطشهم له، وظلمهم إياه ولم يجد من يناصره، ويشد أزره من أصحابه وخلانه، ويشكو تخليهم عنه، وقد بالغ في ذلك بأن لاذ بالخليل الذي يلجأ إليه عند نزول المصائب، ثمَّ يصور حالته التي وصل إليها من السهاد والأرق، أو الركون إلى الراحة، الذي كان سببه جملة من الأمور، التي حرمت جفونه من نوم عميق، ترتاح له نفسه، ويرتاح جسمه، منها حالة العبودية التي فرضت عليه، وقوضت عليه راحته وجعلت فراشه الذي يأوي إليه من جمر، وليس أي جمر إنّما هو جمر شجر الغضا الذي عرف بشدة ناره.

و مما يزيد في معاناته، حبه لعبلة، الحب الذي فقد الكفاءة، لأنه حب من عبد لواحدة من حرائر العرب.

إن عنترة في قلق دائم، قد لازم نفسيته، وهو سبب ذلك السهاد، و في القلق «خوف غير محدّد، وغير عقلاني، وهو يتجسَّد بشعورٍ مؤلم بالعجز تجاه خطر يفتقد إلى الوضوح والتحديد»(51).

وعلى الرغم من أن عنترة كان بإمكانه أن يزيح كل هذه الحجب بسيفه، وقوة شكيمته، وفروسيته التي قلَّ نظيرها، فإنّه آثر الخضوع والألم، على فراق الأرض التي بها قومه، ومن بينهم عبلة حبيبته، مع العلم أن القلق «قد ينتج عن صراع نفسي، كما هو الحال حين يكبح الفرد عدوانيته، كما يصدر أيضاً عن نشاط جنسي لم يتواصل إلى الإشباع، أو عن فقدان الحب الملازم عادة، لحالات الحداد، تلك الحالات التي توقظ غالباً مشاعر ترتبط بخيارات مؤلمة، مر بها الفرد، والجدير بالذكر أن القلق في بعض الحالات المرضية قد لا يتولد من وضعيات واقعية، وحقيقية، بل يكون نتاجاً لهوامات وتمثلات خيالية مرتبطة بمآزم لا واعية»(52).

إذن فمن المسلَّم أن هذا القلق الذي استولى على نفسية عنترة، كان سببه –إلى

50– عنترة بن شداد، ديوان عنترة بن شداد، ص: 60.
51– معن زائدة، الموسوعة الفلسفية، 677/1.
52– نفسه.

جانب الأسباب التي ذكرت سلفاً- البيئة الصحراوية والمجتمع الجاهلي، القاسيين في المعاملة، حيث إن الإنسان لا يُحتَرم إلا بقدر أصالة نسبه وشرف عرقه، « فالغزوات والسبي والنهب كانت تخلّف وراءها كثيراً من اللقطاء، الذين يفدون إلى هذا العالم، لِيَشْقوا ويحتقروا بذنب غيرهم، إلا أن الكثيرين من هؤلاء، كانوا يأبون واقعهم، ويثورون عليه، وينهضون من الكبوة التي أصابهم بها القدر، متعوضين عن نقصهم بأعمال متفوقة و بطولية.

لقد كان عنترة محتقراً في بني قومه كالحطيئة، لكنه وفّق إلى السمو والتكافؤ، إذ لم ينخذل بنقصه ويستسلم له، بل حاول أن يثور عليه ويتحرر منه» فتراه يقول:

أُذكِّرُ قَوْمِي ظُلْمَهُمْ لي وَبَغْضَهم ... وَقِلةَ إِنْصَافِي عَلَى الْقُرْبِ وَالْبُعْدِ
بَنَيْتُ لَهُمْ بِالسَّيْفِ مَجْداً مُشَيَّداً ... فَلَمَّا تَنَاهَى مَجْدُهُمْ هَدَّمُوا مَجْدِي
يَعِيبُونَ لَوْنِي بِالسَّوَادِ وَإِنَّمَا ... فِعَالُهُمْ بِالْخُبْثِ أَسْوَدُ مِنْ جِلْدِي
فَواذُلَّ جِيرَانِي إِذَا غِبْتُ عَنْهُمُ ... وَطَالَ الْمَدَى مَاذَا يُلاقُونَ مِنْ بَعْدِي

يعبر عنترة هنا عن الجور الذي يلاقيه من قومه، ويبين أنهم لم ينصفوه، بالرغم من أنَّه بنى لهم مجداً شيده بسيفه، ومع ذلك قللّوا من شأنه، ولم ينل حريته منهم بحجة أن لونه أسود، وأنه ابن أمة، فهو عبد، لأنه ولد لأمه، يلحق بأمه، ولا يحق له أن يجلس مجالس السادة، الأشراف من بني قومه، وفي الأبيات الماضية يبيّن عنترة أن سواده « لا ضير فيه وإنما الضير في سواد الفعال والضمير »[53] فالشاعر يؤكد أن سواد الجلد ليس نقصاً ولا معرّة ولا عيباً، إنما العيب والمعرّة الأفعال السيئة التي يمارسها قومُه مثل: القهر، والجور، والعدوان، وإخلاف الوعد، وغيرها من الأفعال الذميمة المشينة، ويؤكد أن هذا هو المقياس الذي يجب أن تقاس به أفعال الفرد، فيَتشرُف بها أو يُحَطَّ من قدره بسببها، وليس المقياس ما طبقّه الجاهليون من مقاييس ظالمة، تعتمد اللون في التمييز بين الناس، وهو بهذا يجذِّر المفهوم الذي أكده الإسلام فيما بعد، في قوله سبحانه وتعالى في سورة الحجرات: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: 13]، وقول النبي ﷺ في خطبة الوداع: « يأيها الناس ألا إن ربكم واحد لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ

53- إحسان سركيس، مدخل إلى الأدب الجاهلي، ص 189.

ﷺ أَلَا هل بلغت؟ قالوا: بلى يا رسول الله قال: فليبلغ الشاهد الغائب»[54].

وكان عنترة دقيقاً في عبارته و أسلوبه إذ وقف عند نفي النقيصة بسبب سواد الجلد دون غيره ودون تجاوزه لهذا الظاهر الذي يتراءى للأعين، ولا ضير في سواد جلد إذا كان المخبر أبيض صافياً، والسريرة نقية جميلة.

إن عنترة يؤكد من ناحيةٍ دورَه البطولي في «محاولة لتحقيق هذه الذات في إطار بطولي» ويؤكد من ناحيةٍ ثانية رفضَه لما يقره المجتمع من أعراف وقوانين، بمعنى أنه «يطرح العبودية، ويؤكد نفسه مساوياً للسيد، إنه يريد أن يكون سيداً بدوره».

الخمر وعلاقتها بالتمرد عند عنترة

مثّلَ شرب الخمر عند عنترة ملمحاً من ملامح التمرد السلبي، ومما يثير الانتباه أن عنترة يغاير الناس في شربه الخمرة ومن ذلك قوله:

وَلَقَدْ شَرِبْتُ مِنَ المُدامَة بَعْدَمَا ... رَكَدَ الْهَوَاجَرُ بِالْسَيُوفِ الْمُعْلَمِ
بِزُجَاجَةٍ صفراء ذَاتِ أَسِرَّةٍ ... قُرِنَتْ بِأَزْهَرَ في الشِّمَال مُفَدَّمِ
فَإِذَا شَرِبْتُ فإنني مُسْتَهْلِكٌ ... مَالِي، وَعِرْضِي وَافِرٌ لَمْ يُكْلَمِ
وَإِذَا صَحَوْتُ فَمَا أُقَصِّرُ عَنْ نَدَى ... وَكَمَا عَلِمْتِ شَمَائِلِي وَتَكَرُّمِي

يتوجَّه عنترة في هذه الأبيات إلى حبيبته عبلة مبيناً لها سبب شربه الخمرة، واحتساءه لها، وهو لا يريد منها غير الاعتراف بوجوده، والثناء على فروسيته وسماحته، وعليه أن يحبَّها حبّاً صامتاً محروماً، ونحس بهروبه من الواقع الأليم برغبته في شرب الخمر جهاراً، في سكون الظهيرة، لا شرب مستمتع فرح، وإنما شرب يائس يبحث عن النسيان يتجرع الظلم صابراً.

ويصف عنترة حالته عند شربه الخمر، بأنّ شربه لها لم يكن كشرب عامة الناس، الذين يشربون الخمر لفقدان العقل وذهابه، بذلك يكونون لقمة سائغة لأعدائهم، إنما شربه لها شرب السادة، الذين يشربونها لأجل الترفع والتفكّه، ولا ننسى أنه اعتمد «على

54- محمود الألوسي البغدادي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، مطبعة وهبة، القاهرة، مصر، د. ت 25، 163/26 وما بعدها.

قوته المعنوية، وفروسيته الخلقية النبيلة، والحديث عن الظلم المر (العرض المكلوم) إشارة مباشرة إلى رفض الواقع والثورة عليه، ومحاولة لطرح واقع جديد أساسه الفروسية الحربية، والفروسية الخلقية النبيلة. ومن هذا المنظور انطلق يصف قوته الجسمية وقوته النفسية »[55].

ومن خلال قراءة الأبيات نستشف أن الشاعر قد سلك مسلكاً لذاته من أبناء السادة وغيرهم من الجاهليين الذين كانوا يرون أن من كمال الشخصية معاقرة الخمرة وشربها، ويعدونها من صفات الرجولة والفحولة، فهو يصفها ويصف شربه لها، ويؤكد أن شربه لها يختلف عن شرب المجان وسقطة القوم، فيبرز صفة الكرم المتأصلة فيه ويحترس في ذات الوقت عن بذل العرض رخيصاً إذا ما لعبت الخمرة بعقله كعادة المعاقرين لها.

55- أنور أبو سويلم، دراسات في الشعر الجاهلي، مطبعة الخانجي، القاهرة مصر، د. ت ص: 26.

مصادر البحث ومراجعه

1. كتاب الله الخالد القرآن الكريم.
2. إبراهيم الأبياري: ديوان عنترة، مصطفى البابي الحلبي، د. ت.
3. ابن خِلّكان: وفيات الأعيان، المعارف، د. ت.
4. ابن منظور: لسان العرب، دار صادر بيروت د. ت.
5. بطرس البستاني: أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، دار صادر، ط 8 بيروت 1962.
6. أبو الفرج الأصفهاني الأغاني: دار الكتاب اللبناني بيروت، ط 4 1979.
7. إحسان سركيس: مدخل إلى الأدب الجاهلي، دار الطليعة بيروت 1979.
8. الجاحظ: البيان والتبيين، دار المعارف، القاهرة، د. ت.
9. أنور أبو سويلم: دراسات في الشعر الجاهلي، مطبعة الخانجي، القاهرة مصر، د. ت.
10. إيليا حاوي: في النقد و الأدب، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط الرابعة 1979.
11. جواد علي: المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت مكتبة النهضة بغداد، 1978.
12. زكريا إبراهيم: مشكلة الإنسان، مكتبة مصر، دار مصر للطباعة القاهرة، د. ت.
13. عبد القادر عبد الحميد زيدان: التمرد والغربة في الشعر الجاهلي، رسالة ماجستير، مخطوط جامعة القاهرة 1978.
14. عبد الكريم سليمان أبو خشان: تمرد بشار بن برد، رسالة ماجستير، مخطوط جامعة الإسكندرية 1977.
15. عبد المجيد هندي: دراسات في الأدب الجاهلي وصدر الإسلام، د. ت.
16. عنترة بن شداد: ديوان عنترة، المطبعة التجارية، القاهرة، د. ت.
17. فتحي السعيد: الشعراء الفرسان، الدار القومية للطباعة والنشر، د. ت.
18. كريم الوائلي: الشعر الجاهلي قضاياه و ظواهره الفنية، الدار العالمية القاهرة، د. ت.
19. كمال أبوديب: الرؤى المقنعة نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة 1986.
20. محمد هاشم عطية: الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي، ط مصطفى البابي الحلبي و أولاده، ط 2، 1936.
21. محمود الألوسي البغدادي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني،

مطبعة وهبة القاهرة مصر.
22. محمود ذهني: سيرة عنترة، دار المعارف مصر 1977.
23. معن زائدة: الموسوعة الفلسفية، بيروت لبنان، د. ت.
24. مي يوسف خليف: ظاهرة الاغتراب عند شعراء المعلقات، دار نهضة مصر، 1987.
25. يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، دار المعارف ط 4، 1966.